أمير ميا فارقين
الملك الكامل ناصر الدين محمد وأثره في مقاومة الغزو المغولي (٦٤٥ – ٦٥٨ هـ / ١٢٤٧ – ١٢٥٩ م)

الدكتور
غالب ياسين فرحان الدليمي
مدرس / المديرية العامة لتربية الانبار

ملخص

يعتبر الملك الكامل ناصر الدين محمد من الشخصيات التأريخية المهمة التي رفضت الخنوع للغزو المغولي ورفضت عقد سلام معهم وقرر ان يجاهد هؤلاء الغزاة الى النهاية اذ كان جيشه يسيطر على منطقة الشمال الغربي للعراق وعلى الشمال الشرقي من بلاد الشام فلم يكن امام جيش المغول عندما يريد السيطرة على بلاد الشام الا ان يجتاز هذه القوة التي كانت تحت سيطرة الملك الكامل وعلى الرغم من خنوع وخضوع معظم امراء المنطقة الا ان اخضاع مدينة ميافارقين بالقوة كان امراً حتمياً امام المغول .

The prince of Miafarqeen

The king (AL-Kamil) Nasir AL-Din Mohammed and his influence In resisting the Mongol invasion.(645 – 658 A.H / 1247 – 1254 A.D.)

By Dr. Ghalib Yassein Farhan AL-Dulaimy
Teacher directorate General AL-Anbar Education

Summary:

The king (AL-Kamil) Nasir Al-Din Mohammed is regarded one of the historical characters who refused to undergo to the

Mongol invasion and refused to hold peace with them and decided to fight those invaders till the end. His army was controlling the North-Western area of Iraq and North-Eastern of Syria. The Mongol Army when he wants to invade Syria has to pass this area which was controlled by the king (AL-Kamil) and despite the fact that most of the kings around that area surrendered to the Mongol the king remained. Altimatly the Mongol has to make this king yielded by force.

المقدمة

لم تكن الخلافة العباسية في هذه المرحلة التاريخية الخطرة على مستوى المسؤولية ولم تدرك حقيقة الكارثة التي باتت تهدد الدولة العربية الإسلامية فكانت تكتفي ببعض الخطوات الضعيفة ومنها استنفار المتطوعين وإرسال الكتب إلى الأمراء تدعوهم إلى النهوض بوجه المغول وسرعان ما تنتهي هذه الإجراءات بمجرد زوال الخطر إذ كان على الخلافة العباسية تعبئة جميع طاقات الأمة البشرية والمادية لمواجهة التحدي المغولي الذي كان يمتلك قدرات عسكرية كبيرة أستغل فيها ضعف قدرات الخلافة العباسية بسبب الخلافات القائمة بين وزيرها وقائد الجيش الذي ترك أثر كبير في أضعاف مقاومة الخلافة العباسية واستعدادها لمواجهة الخطر المغولي الذي أصبح يهدد بغداد عاصمة الخلافة ومدن بلاد الشام والجزيرة الفراتية .وبعد احتلال بغداد سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م توجهت قوات المغول نحو الغرب فوصلوا إلى ديار بكر وأمد وميافارقين وبلغوا بلاد الجزيرة وقد انبرى بعض الملوك والأمراء في حمل راية الجهاد والتصدي للغزو المغولي وكان بين أبرزهم الملك الكامل

ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي الأيوبي أمير مدينة ميافارقين الذي ضرب مثالاً رائعاً في الشجاعة والأقدام في مواجهة المغول على الرغم مما كانوا يتمتعون به من قدرات عسكرية ومادية إذ كانت المدينة تشكل بوابة بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام وأن الاستيلاء عليها يفتح لهم باب الدخول إلى تلك المدينة دون مقاومة لذلك كان حريصاً على التصدي لهذا الغزو على رغم مما تترك علية من أثار فواجه حصار المغول الذي فرض على المدينة لمدة عامين والذي لم يثن من عزيمته في المقاومة والأقدام حتى الاستشهاد

<u>أمير ميافارقين</u>

الملك الكامل ناصر الدين محمد وأثره في مقاومة الغزو المغولي

(٦٤٥-٦٥٨هـ/١٢٤٧-١٢٥٩م)

تولى الملك الكامل ناصر الدين محمد أمارة مدينة ميافارقين (١)بعد وفاة والدة الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب (٦٤٥هـ/١٢٤٧م)(٢) وكانت مدة حكمه ثلاث عشره سنة امتازت بالنشاط العسكري الكبير الذي تمثل بمقاومة الغزو المغولي لمدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ،إذ أخذت أطماع المغول تدفعهم بالسيطرة على بلاد الشام بعد احتلال بغداد والسيطرة عليها ولكي يتحقق هذا الهدف كان عليهم السيطرة على مدينة ميافارقين وعزلها لأنها كانت تمثل بوابة الدخول إلى مدن بلاد الشام وقد أثار هذا مخاوف ملوك بلاد الشام وأمرائها وأعتبروا ذلك خطراً كبيرا عليهم لأن السيطرة على تلك المدينة يفتح لهم باب الدخول الى تلك البلاد

وبدون مقاومة ،لذا تعرضت في سنة (٦٥٠هـ/١٢٥٢م)لغزو المغول الذي أستطاع فرض الحصار عليها أكثر من أحد عشر يوماً ثم رحلوا عنها بعد ذلك نتيجة المقاومة الشديدة التي أبداها أبناء المدينة (٣) من هنا نجد أن قادة الجيش المغولي قد جعلوا لتلك المدينة أهمية كبيرة في المرحلة القادمة .

موقفة من الخلافة العباسية في بغداد .

لقد تعرضت بلاد المشرق الإسلامي ألي هجمات وحشية من قوى غازية عرفت باسم المغول وكانت بغداد من بين تلك المدن التي أصيبت بهذا الحدث العظيم ،وأثبتت الأحداث التاريخية أن أي نجاح لتلك القوى الغازية بالسيطرة على العراق تكون له نتائج سلبية على بقية مدن الجزيرة الفراتية وبلاد الشام بحكم موقع العراق الستراتيجي من تلك المدن ،وعلية فقد أصبحت الأملاك الأيوبية في تلك المدن منذ سنة (٦١٩هـ/١٢٢١م) مهددة بحكم الهجمات المتكررة للقوات المغولية الغازية على إقليم المشرق الإسلامي وأستمر ذلك التهديد حتى بعد احتلال بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)إذ تعرض أبناؤها إلى القتل والسلب والنهب فعمت الفوضى وساده الرعب دون أن يجرؤ أحد على مقاومتهم .وإزاء هذه الأحداث الخطيرة والمهمة التي تعرضت لها بغداد لم يقف الملك الكامل ناصر الدين محمد موقف المتفرج ولا موقف المدافع عن بلادة فحسب وإنما أتخذ موقفاً شجاعاً ومؤثراً في حشد طاقات بلادة البشرية والمادية من أجل مساندة الخلافة العباسية في بغداد للوقوف بوجه الغزو المغولي ،وكان على يقين بأن اجتياحهم وسيطرتهم على بغداد سيمهد لهم

الطريق للدخول إلى بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ومن بعد ذلك تكون بلاده

الخطوة الثانية لذلك الغزو ،وإزاء تلك الأحداث الخطيرة والمهمة عقد الملك الكامل ناصر الدين محمد أمير ميافارقين لقاءات عديدة مع ملوك وأمراء بلاد الشام لتدارس الموقف ووضع الحلول له فيذكر ابن شداد الذي كان له شرف معايشة تلك الأحداث والمشاركة فيها بأنة حضر للقاء الذي تم بين الملك الكامل ناصر الدين محمد والملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب فيقول :(فلما اجتمعنا قال له الملك الكامل :أن هؤلاء التتر لا تفيد معهم مداراة ولا تنجح فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلا في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد .ومولانا السلطان قد بذل لهم الأموال من سنة اثنتين وأربعين والى اليوم فما الذي أثرت فيهم من خلوص المودة ؟فلا يغرّ مولانا بكلام بدر الدين ولا بكلام رسولك فأنهما جعلاك خبزاً ومعيشة. وأحذرك كل الحذر من رسولك فأنة لا ينصحك ولا يختارك عليهم،وغرضه أخراج ملكك من يدك، وأنا فقد علمت أنني مقتول سواء كنت‘ لهم أو عليهم، فاخترت بأن أكون باذلا مهجتي في سبيل الله. وما الانتظار وقد نزلوا على بغداد ؟!! والمصلحة خروج السلطان بعساكره لإنجاد المسلمين،وأنا بين يديه، فأن أدركناه عليها فبها ونعمت ،وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء وإن لم ندركه‘ أخذنا بثأره.)(٤)

يتضح لنا من خلال ذلك أن الملك الكامل ناصر الدين محمد صاحب ميافارقين كان يدرك إدراكا واسعاً لا يقبل الشك بأن المغول ليس لهم هدف معين يقفون عنده وإنما هدفهم هو التوسع والسيطرة على العالم الإسلامي ومن هنا نجد أن لمدينة ميافارقين بقيادة ملكها الكامل ناصر الدين محمد أثراً كبيراً في بلورة الرأي العام في بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام من أجل الوقوف بوجه الغزو المغولي الذي دخل البلاد الإسلامية غازياً إذ تعرضت بغداد لهجومهم الوحشي ،وبهذه الروح العالية ضرب مثالا رائعاً في الصمود والاستبسال من أجل الدفاع عن بيضة الإسلام .

وعندما سقطت الخلافة العباسية على يد المغول سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)اهتزت مشاعر الحكام المسلمين في كثير من البلدان المجاورة لها وأعدوا العدة لليوم المرتقب ولاسيما أنهم عرفوا سياسة المغول بشكل واضح ودقيق ولا يقبل الشك ووجدوا بأن من غير المعقول أن يقف هؤلاء الغزاة المتوحشون عند حدود معينة بل كان هدفهم يرمي ألى بسط نفوذهم على كل البلاد بما نشروا من دعاية وتهويل بأن جيشهم هو الجيش الذي لا يقهر ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تقف بوجهة. لذلك أخذ بعض الحكام يحسبون الحساب لقرب نهايتهم، فبادر الكثير منهم با لحضور ألى هولاكو وتقديم الطاعة والولاء له حفاظاً على مصالحهم الشخصية ومناصبهم السياسية مثـل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي شرع بجباية الأموال من أهالي الشام وحملها إلى المغول امتثالا لأمرهم (٥)وعز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان أبناء كيخسرو بن كيغباذ صاحب بلاد الروم (٦)ولم يكن الملوك الأيوبيون أحسن حالاً من غيرهم

عندما علموا بسقوط بغداد على يد المغول وممارسة هؤلاء الغزاة أبشع الجرائم بحق أبنائها الآمنين ،فقد أسرع الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد بن غازي (٦٤٠-٦٥٩هـ/١٢٤٢-١٢٦٠م)صاحب دمشق وحلب إلى إعلان خضوعه للمغول إذ أرسل أبنه الملك العزيز سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)محملاً بالهدايا والتحف الثمينة ألى هولاكو على الرغم من كونه من أكثر الأمراء الأيوبيين قوة واقتدارا ألا أنة أخذ يهادن المغول حالة علمه بسقوط بغداد(٧)خوفاً على منصبه السياسي، فكان يرفض دعوة الملك الكامل ناصر الدين محمد صاحب ميافارقين بتقديم المساعدة للخليفة العباسي عندما هددت بغداد عاصمة الخلافة العباسية من المغول ،إذ قال له الملك الكامل :(أن المصلحة تقضي بأن نذهب بجيش جرار لمد الخليفة)(٨) لكن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن محمد صاحب دمشق وحلب تجاهل هذا الطلب .

الدفاع عن بلاد الشام ضد المغول :

عندما علم الملك الكامل ناصر الدين محمد أمير ميافارقين بخطورة الموقف وتوجه الزحف المغولي إلى بلاد الشام أدرك بأن هؤلاء الغزاة لم يكتفوا بحدود معينة وأن زحفهم قادم لا محالة لذا خاطب ملوك بلاد الشام وأمراءها بضرورة النجدة لمنع المغول من الدخول إلى بلاد الشام ومن بينهم الملك الناصر صاحب دمشق وحلب (فأستخف برأيه ولم يسمع مشورته ،بل سوفه بكلام وسّرحه من عنده بالأمان)(٩)

من كل ما تقدم يبدو أن الملك الكامل ناصر الدين محمد كان من ابرز الملوك الأيوبيين في هذه الحقبة الزمنية في التصدي للغزو المغولي ،لذالك نجده يقطع عهدا على نفسه بأنه سيبقى يقاتل هؤلاء الغزاة المعتدين على حرمات البلاد قتالا قل نظيره .

ففي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) توجه جيش المغول من بلاد أذربيجان قاصدا إقليم الجزيرة الفراتيه وبلاد الشام وكان يقود طلائع تلك الجيوش المغولية القائد المغولي (كيتوبوقا) وكان مقسما على جناحين وقلب ،وكان بايجو وسنقر يقودان الجناح الأيمن ،أما الجناح الأيسر فكان يقوده سو نجاق ،بينما تولى مهمة قيادة القلب هولاكو نفسه ،وقد وجه ابنه يشموت مع سونتاي لمحاصرة ميافارقين (١٠) وعهد إلى احد عملائه وهو الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بمحاصرة مدينة أمد (١١) القريبة من ميافارقين ،وابتدأت تلك الحملة بتوجيه غارة على مدينة ميافارقين على أثر معلومات وصلت إليهم بأن الملك الكامل ناصر الدين محمد قام بصلب قسيس مسيحي كان قد وصل إلى بلاده بطريقة غير مشروعه لإيصال المعلومات ألى المغول عن قوة المقاتلين في ميافارقين وعددها،فعهد هولاكو إلى الأمراء يشموت وسنتاي وأيلكا نويان بالتقدم نحو ميافارقين والاستيلاء عليها، وعندما اقتربت قواتهم من المدينة أرسلوا رسولاً إلى الملك الكامل يدعونه إلى الطاعة وعدم المقاومة فرد عليهم قائلاً:(لا ينبغي ألا يضرب الأمير في حديد بارد ولا يتوقع الشيء المستحيل، إذ لا يوثق بوعدكم وأنني لم انخدع بكلامكم المعسول، ولن أخشى جيش المغول، وسأضرب بالسيف مادمت حياً، إذ كيف أثق بابن رجل نكث

العهد والميثاق مع خوارزم شاه والخليفة العباسي وحسام الدين وتاج الدين أربل وقد جاء الملك ناصر الدين خصيصاً بأمانكم فرأى في النهاية ما رأى وسوف أرى أنا أيضا)(١٢)

صمود الملك الكامل ناصر الدين محمد أمام حصار المغول :

عندما علم الملك الكامل ناصر الدين محمد أمير ميافارقين بإصرار الغزاة المغول على دخول بلاده خرج بنفسه وجلب عدداً كبيراً من عساكر مدينة أمد القريبة من ميافارقين وأرسلت تلك القوات مع نائبه الأمير عماد الدين بن نباته (١٣) كذلك قام بجمع أبناء المدينة من الأمراء وعامة الناس واتفقوا على قتال المغول وأصبحوا رهن أشارته لخوض المعركة الحاسمة بعد أن طيب قلوبهم وخطب فيهم قائلاً:(سوف لا أبخل عليكم بالذهب والفضة والغلال الموجودة في المخازن، وسأؤثر بها كلها المحتاجين، فأني بحمد الله لست كالمستعصم – عبداً للدينار والدرهم الذي طوف برأسه و بملك بغداد بسبب بخله وشحه)(١٤)فأتحد معه جميع أبناء المدينة للقتال قاطعين على أنفسهم عهد الولاء لأميرهم والوقوف إلى جنبه للقتال ضد المغول حتى أخر لحظة.

أمام هذه الأحداث الخطيرة وجسامة الموقف للملك الكامل أستطاع المغول من فرض حصار على ميافارقين فقاموا بنصب المنجنيق عليها من كل جانب،وبدأ القتال بين الجانبين ألا أنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى المدينة بسبب المقاومة الشعبية الشديدة لأبنائها الأبطال الصابرين خلف قائدهم الملك الكامل، ولما رأى المغول طول مدة الحصار وعدم جدوى القتال لجأوا إلى أيقافة

وقاموا بعدة تدابير منها بناء سور كبير حول المدينة وحفروا خندقاً عميقاً ليحكموا السيطرة عليها وليمنـــــعوا الدخول أليها والخروج منها (١٥) وقد أسهم الأرمن في هذا الحصار إلى جانب المغول مما لا يدع مجالاً للشك بأن المسيحيين الشرقيين كانوا يعتقدون بأن سيرهم في ركاب المغول والتعاون معهم ضد المسلمين سيقودهم إلى حرب صليبية جديدة(١٦)

لقد أدرك المغول خطورة الحصار وطول مدته وتأثير الظروف المناخية عليهم حيث كثرة الأمطار والثلوج مما أدى الى قله الأقوات وانتشار الأمراض التي أوقعت الفناء في دوابهم حيث لم يبق معهم سوى ألف وخمسمائة فرس وهذا ما دفع يشموت بن هولاكو إلى الخروج بأعداد كبيرة من قواته بعد أن أستخلف قائده سنتاي لقيادة الجيش ومعه ثلاثة ألاف شخص، وقد أنتهز أبناء ميافارقين غياب هؤلاء الغزاة فقاموا ببناء سور حول المدينة وحفروا خندقاً عميقاً وأجروا فيه المياه القريبة من المدينة وبنو الأبراج وحفظوا الأسوار (١٧)

وعندما أنقضى فصل الشتاء عاد يشموت أليها ومعه جيش كبير فشدد من الحصار عليها أذ أستمر حوالي سنتين (١٨) وقد عجز هذه المرة عن دخولها بسبب التحصينات الشديدة التي قام بها أبناء مدينة ميافارقين فأستخدم أسلوب المكر والخداع من أجل الإيقاع بأبناء هذه المدينة إذ قام بإرسال عملائه الذين كانوا يتعاونون معه إلى الملك الكامل ناصر الدين محمد وأمرائه لتسليم المدينة لهم تحت ذريعة شرائها من هولاكو مقابل حفظ أرواحهم وأرواح عوائلهم من القتل وتوفير الأمان والاستقرار لهم، فوصل أليهم شرف الدين العلائي أمير القراغلية وقال لهم:(أني اشتريت هذا البلد وأهله بتسعين ألف درهم من

هولاكو) فشعروا بأنها حيلة فامتنعوا عن ذلك،كذلك وصل أليهم أحد مماليك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وأخبرهم بأن بدر الدين قد بذل ما بوسعه من أجل شراء البلد من هولاكو، ألا أن هذه الأساليب باءت بالفشل بعد أن رد عليهم فرسان المدينة علم الدين سنجر الأعسر الخوارزمي وحسام الدين بن رش وعماد الدين الهكاري بقولهم :(نحن نعرف محال أستاذك،والله ما ننزل إلا مع حجارتها، فإنا قد بايعنا الله تعالى)(١٩)

وبهذه الروح البطولية العالية ضرب أبناء مدينة ميافارقين بقيادة ملكهم الكامل ناصر الدين محمد أروع صور البطولة والشجاعة والصمود ضد أخطر وأشرس غزو همجي متوحش عرفه التاريخ فضلوا فيه الموت بعز وشرف تحت ظل مدينتهم المجاهدة على الخنوع والاستسلام،

فكان صمودهم أسطورياً ونادراً على الرغم من جسامة الموقف وخطورة المغول على تلك البلاد .

وفي سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)عاود المغول قتالهم على المدينة، وكانت هذه المرة أشد ضراوة، فيقول أبن شداد الذي عايش تلك الأحداث :(لقد نصبت على البلد ستمائة سلم على السور يصعد في عرض الدرجة ستة عشر نفساً)(٢٠)

وفي هذه المرحلة الخطيرة تحولت المقاومة لأبناء المدينة من موضع الدفاع إلى موضع الهجوم فأخذوا يهاجمون القوات المغولية الغازية بشراسة كبيرة بقيادة ملكهم الكامل ناصر الدين محمد فأظهروا بطولات نادرة في القتال على الرغم مما تعرضوا أليه من حصار شرس إذ أصابهم نقص كبير في الغذاء إلا

أنهم صمدوا بوجه ذلك فكان الملك الكامل ناصر الدين محمد يخرج ومعه كوكبة كبيرة من فرسانه لمقاتلة الغزاة (٢١)

لقد ظهر في ميافارقين وهي تتصدى للغزو المغولي مجموعة من الفرسان الأشداء الذين أبدوا شجاعة فائقة من القتال في ساحة الميدان فحيروا المغول في فنون قتالهم فتارة يقاتلون من أعلى ابراج المدينة وتارة أخرى يخرجون خارج المدينة فاستطاعوا أن يقتلوا أبرز فرسان المغول وهو نادري الكرخي الذي كان يوصف بأنه الشخص الذي يهزم جيشاً بمفرده فكان فرسان ميافارقين سيف الدين لوكبلي وعنبر الجشي أبناء بررة لتلك المدينة أعجزوا الأعداء عن إخضاعها مما أجبر هولاكو على إرسال قوة أضافية أليها بقيادة أحد قادته الكبار وهو القائد أرقنوا لمساعدة جيشهم الرابض خلف أسوار ميافارقين،ألا أنهم لم يحققوا هدفهم الرامي إلى إسقاط المدينة (٢٢)

وأمام هذا الحصار الظالم والقتال الضروس كان الملك الكامل ناصر الدين محمد ينزل إلى المقاتلين كل جمعة ويجتمع معهم في جامعها الكبير ويقول لهم: (ليس الغرض من هؤلاء الجماعة كلهم غيري، دعوني أخرج إليهم وسلموا البلد أليهم لتأمنوا على أنفسكم ومواليكم، فيقولون:(معاذ الله أن نفارقك حتى تروح أرواحنا) (٢٣)

وأمام هذا التصميم البطولي الرائع لأبناء ميافارقين في مقاومة الأعداء لم يجد الملك الكامل ناصر الدين محمد نفسه إلا مقاتلاً يحمل أسمى معاني التضحية والفداء من أجل الكرامة والعزة

الوطنية،فكان يقاتل بروح عالية إلى جانب فرسانه الأبطال من مكان إلى اخر فلم يهتز قلبه لجيوش المغول الجرارة على الرغم من كثرتهم أو يتطرق الهلع إلى نفسه فيبادر بالتسليم كما فعل غيره من الملوك والأمراء ولم ينخدع بأقوالهم المعسولة التي تدعوه إلى الطاعة والأنقياد، وإنما أصر على الجهاد والمقاومة على الرغم من استمرار الحصار الظالم لمدة عامين، ففي أحدى المعارك خرج للقتال ومعه أحد أمرائه وهو الأمير حسام الدين بن رش فقاتل الغزاة بشجاعة فائقة حتى قتل الأمير حسام الدين بن رش في تلك المعركة ووجدت فيه اثنتان وسبعون ضربة نشاب ونجا الملك الكامل ناصر الدين محمد من هذه المعركة، على الرغم من استمرار الحصار لمدة عامين لم يفلح المغول في اقتحام المدينة إلا أن نفاذ المؤن وآلات الحرب وانتشار الوباء وهلاك سكان المدينة الذين بدأو يأكلون الميتة والكلاب والقطط والفئران قلل من مقاومتهم (٢٤)

بعد عامين من الحصار ووقوع الملك الكامل ناصر الدين محمد في الأسر :

في سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م)وبعد حصار ظالم أستمر عامين أظهر خلاله الملك الكامل ناصر الدين محمد وأمراؤه وعامة الناس المدافعين عن المدينة ضروباً من الشجاعة المنقطعة النظير إذ كان في جيش الملك الكامل فرسان شجعان أوقعوا خسائر فادحة في صفوف المغول، أمتاز هؤلاء الفرسان ببسالتهم وإحكام رميتهم، ولكن نظراً لطول الحصار المفروض على المدينة نفدت عند المقاتلين الشجعان الأزواد وعم القحط وأنتشر الوباء فأضطر الناس إلى أن يأكلون الميتة حتى هلك أكثر سكان المدينة، وعندما تأكد الملك الكامل بأن

المقاومة أصبحت عديمة الجدوى أستسلم للمغول، وبهذا أصيبت المدينة بأعظم كارثة شهدتها على أيدي الغزاة المغول الذين دأبوا على تدمير البلاد التي يجتاحونها لأن هدفهم هو القضاء على الأمة الإسلامية،فكانت سياستهم تتسم بالسلب والقتل ونشر الفوضى والرعب لدى عامة الناس، فيذكر أبن شداد قائلاً:(لما ملك التتر ميافارقين وجدوا فيها من العوام ثلاثة وستين نفساً ومن الأجناد أثنتين وأربعين رجلاً)(٢٥) ويقول الهمذاني :(دخل التتار فوجدوا السكان قد ماتوا جميعاً عدا سبعين شخصاً نصف أحياء، كانوا قد اختفوا في المنازل، فقبضوا على الملك الكامل وجاءوا به إلى أشموطِ [يشموت] الذي سلمه إلى أبية هولاكو فأمر بتقطيعه أرباً أرباً كانوا يضعونها في فمه حتى هلك في سنة(٦٥٨هــ/١٢٥٩م) (٢٦)

عزمه وشجاعته :ـــ

وعلى الرغم من وقوع الملك الكامل في الأسر إلا أن ذلك لم يثن عزيمته فكان يرد على هولاكو بكل شجاعة وإصرار معتبراً موقفه هذا موقفاً جهادياً ضد الكفر، فيذكر أبن شداد الذي عايش تلك الأحداث قائلاً :(أن الملك الكامل ناصر الدين محمد عندما وقع في الأسر سنة ٦٥٨هــ١٢٥٩م أحضر بين يدي هولاكو، فقال له :أنت تعلم أن سياسة المغل وما هم علية، وأنهم إذ عمل أحدهم ثلاث ذنوب يعفى عنه وفي الرابع يقتل وأنت : سقيتك في همذان فما شربت ؟ وأمرتك بهدم سور أمد وتعطيها لركن الدين ـــصاحب بلاد الروم – ما فعلت ؟ وقلت لك : خذ أخوانك وأموالك وعساكرك والتقيني على بغداد حتى تقاتل الخليفة فامتنعت !! والذنب الرابع :أني عبرت على بيوتك ولم

تخرج ألي ولا سيرت لي هدية ولا ضيافة ولا أبصرت وجهي حتى لا تموت. فأجابه الملك الكامل بكل شجاعة : من أنت حتى أتحمل المشقة في رؤية وجهك ؟!أنت مالك قول ولا دين، بل خارجي يجب عليّ قتلك وأنا خيرٌ منك، فقال هولاكو : بأي شيء أنت خيرٌ مني ؟فقال لأني أؤمن بالله وبرسوله ولي دين وأمانة ومع هذا فأن المّلك بيد الله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء . وكان لنا من عدن إلى تبريز فذهب منا ذلك ،وكذلك يفعل الله بك إذ أراد ، يرسل عليك من يقتلك ويسبي ذريتك ،ولا يترك من عسكرك أحد ،فقال له (هولاكو) (كلامك أكبر منك ،لأنك من السلاطين الصغار ؟ثم ركزه في سيف كان في يده فخرق بطنه وأمر أحد قواده وهو سونجق فضرب عنفه وبعث برأسه إلى الشام)(٢٧)

ويذكر الذهبي تلك الحادثة قائلاً: (فدخلت التتار دار الكامل وأمنوه وأتوا به هولاكو بالرها فإذا هو يشرب الخمر فناول الكامل كأساً فأبى وقال هذا حرام فقال لامرأته ناوليه أنتِ فناولته فأبى وشتم وبصق فيما قيل في وجه هولاكو)(٢٨) وبعد ذلك حمل رأسه على رمح وطيف به في البلاد ومروا به إلى جانب حلب وحماة حتى وصلوا إلى دمشق في السابع والعشرين من شهر جمادي الأولى سنة (٦٥٨هـ/١٢٥٩م) وقد كانت الطبول والأغاني تنشد فرحاً بقدوم رأس الملك الكامل ناصر الدين محمد باني مجد بلاده ورافع عزه شعبه أمام أكبر طغاة لا يعرفون الرحمة (٢٩) فعلقوا رأسه في شبكة ووضع في باب الفراديس بدمشق وبقي معلقاً إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين بعد سقوط طغاة العصر المغول في عين جالوت فدفن بمشهد الحسين(علية السلام)داخل

باب الفراديس(٣٠) فنظم عنة شهاب الدين أبو شامه قصيدة يذكر فيها فضله وجهاده في الدفاع عن بيضة المسلمين ،وشبهه بالحسين(علية السلام)في قتله مظلوناً(٣١)

ابن غازي غــزا وجاهد فــــي	لله قــوماً أثـــــخنوا في المشرقيـــن
والعراقين ظاهرا غاليا وبها مــا	ت شهيـــــداً بعد صبر عليهم عاميــــن
لم يثنه أن طيف بالــراس منــه	فــــلـــــه أســـوة بــرأس الحســين
وافق السبط في الشهادة والحمل	لقد حاــــــز أجره مــــــرتيــــن
جمع الله حســــن دين الشهيدين	علــــــى قبـــح ذينــــك الفعلين
ثم واروا في مشهــد الرأس ذاك	الرأس واســـــــتعجبوا من الحاليــن

ولم يسلم من تبقى من أعيان المدينة من غدرهم بعد أن أخذت ميافارقين من قبل التتار فقاموا بجمعهم في جامع المدينة الكبير وقتلوهم عن أخرهم وكان من بين هؤلاء الذين قتلوا عدد من العلماء المشهورين في المدينة ومنهم سيف الدين المعلم ونجم الدين دفتر أخوان تقي الدين الأطرش والشمس بن الحيطلي وفخر الدين محمد بن النقاعي ـــــالوزير ،وأما المدينة هي الأخرى لم تسلم من أعمالهم الوحشية فقاموا بهدم سورها وأبراجها ومسحوا جميع معالمها الحضارية ثم رحلوا عنها بعد أن سلموها إلى أحد أعوانهم وهو عبد الله اللاوي الذي تولى أدارة شؤونها من قبل هولاكو (٣٢)

الهوامش

١- ذكر الإدريسي أنها تقع(بين حدود الجزيرة وأرمينيه٠٠٠وهـــي شـــرقي دجلة على مرحلتين منها ،ولذالك تجعل في بلاد أرمينيه)٠ أبو عبـــدا لله محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـــ) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، عالم الكتب ، بيروت ، ج٢ ص٨٢٥ ، ويؤيد ذالك ابن شداد الذي عايش تلـــك المدينة وإحداثها بشكل دقيق بقوله : (إن بعض الناس يعدها من أرمينيـــه وبعضهم ألأخر يعدها من بلاد الجزيرة وهي تحديدا تقع شرقي نهر دجلة) عز الدين ، محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـــ) الاعلاق الخطيـــرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ،تحقيق يحيى عمـــاره ،منـــشورات وزارة الثقافة الإرشاد القومي ، دمشق ، ١٩٧٨ ،ج٣،ق٢،ص٤٨٥،ص٤٨٦.

٢- الذهبي ،شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت٧٤٨هـــ) سير أعـــلام النبلاء ،ط١،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،لا .ت،ج٢٣ ،ص٢٠١،أبن العماد الحنبلي ،أبي الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـــ) شذرات الذهب في أخبـــار من ذهب ،دار أحياء التراث العربي ،بيروت ،ج٥،ص٢٩٥.

٣- سبط ابن الجوزي ،شمس الدين أبو المظفـــر يوســـف بـــن قزاوغلـــي (ت٦٥٤هـــ) مرآة الزمان في تأريخ الأعيان ،ط١،مطبعه دائرة المعارف العثمانية ،حيدر ،أباد ،الدكن ،الهند ،١٩٥٢ ،ج٨ ،ق٢،ص٧٨٧.

٤ – ابن شداد ،الأعراق الخطيرة،ج٣ ،ق٢،ص٤٨٥ ،ص٤٨٦ .

٥- ابن العبري ،غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـــ) تأريخ مختصر الـــدول ، المطبعة الكاثوليكية ،بيروت ،١٩٨٥،ص٢٧٦، عاشور ،سعيد عبد الفتاح،

وبهذه الحقبة الزمنية (٦٥٨هــ/١٢٥٩م) التي احتلت فيها مدينة ميافارقين انتهى حكم الأسرة الأيوبية فيها على يد ملكها الشهيد الكامل ناصر الدين محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي ،بعدها واصل المغول زحفهم نحو المدن الأخرى مثل ماردين التي استسلمت بعد ثمانية أشهر من الحصار المغولي عليها والمدن الأخرى مثل نصيبين والرها وحران ومدينة سروج التي قتل أهلها عن أخرهم بسبب مقاومتهم للغزاة المغول (٣٣)

الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى ،ط٤ ، مكتبة لأنجلو مصرية ، القاهرة ،١٩٨٦،ص٨٨٨، التكريتي ، محمود ياسين ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١،ص٣٠٣.

٦- أبو الفداء ،عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ) المختصر في أخبار البشر ،ط١، المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة، ١٣٢٥هـ، ج٣،ص١٩٧، حمدي ، حافظ احمد ، المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ، مطبعة الاعتماد ، القاهرة ،١٩٥٠،ص١٤٩.

٧- عاشور ، الحركة الصليبية ،ج٢، ص٨٨٨ ، الصياد ، فؤاد عبد المعطي ، المغول في التأريخ ، دار النهضة العربية ،بيروت ، ١٩٧٠، ص٢٩٠ .

٨- الهمذاني ، رشيد فضل الله (ت٧١٨هـ) جامع التواريخ ، نقلة إلى العربية ، محمد صادق نشأت ، قدمه يحيى الخشاب ، مطبعة ألبابي الحلبي وشركاءه ، مج٢، ج١،ص٧٩١،اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد قطب الدين البعلبكي (ت٧٢٦هـ) ذيل مرآة الزمان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدرأباد ، الدكن ، الهند ، ١٩٥٤، ج١،ص٩١.

٩- ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول ، ج٣، ص٢٧٧.

١٠- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت٦٦٥هـ) الذيل على الروضتين ، عني بنشرة وراجع أصلة ، السيد عزت العطار الحسيني ، دار الجيل ،بيروت ،١٩٤٧، ص٢٠١،ابن شداد

الأعلاف الخطيرة ، ج٣،ق٢،ص٤٨٩، الهمـذاني ، جـامع التـواريخ ، ص٣١٩.

١١- أمد : وهي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذكـراً ، يـاقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـــ) معجـم البلـدان ، دار صادر ،بيروت ،١٩٨٦،ج١ ،ص٥٦.

١٢-ــ الصياد ،المغول في التأريخ، ص٢٩٢، عاشور، فايد حماد ، العلاقات السياسية بين المماليك و المغول في الدولـة المملوكيـة الأولـى ، دار المعارف، القاهرة ،١٩٧٥، ص٤١.

١٣- ابن شداد ،الأعلاق ،الخطيرة ،ج٣،ق٣،ص٤٨٨.

١٤- الهمذاني ،جامع التواريخ،ص٣١٩،ص٣٢٠.

١٥- ابن العبري ، تأريخ مختصر الدول ،ص٢٧٧،أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ،ج٣ ،ص١٩٦،الجنابي ،عجمي محمود خطـاب ،المقاومـة العربية للغزو المغولي حتى عين جالوت ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، بغداد ،١٩٩٠ ،ص١٧٤.

١٦- عاشور ،الحركة الصليبية صفحة مشرقة ،ص٨٨٩،الصياد ،المغول في التأريخ ،ص٢٩٣.

١٧- ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة ،ج٣،ق٢ ،ص٤٩٨ ،ص٤٩٩ .

١٨- الحنبلي ،احمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ، ناظم رشيد ،وزارة الثقافة والفنون ،بغداد ، ١٩٧٨،ص٣٨٧.

١٩- ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٣،ق٢،ص٥٠١.

٢٠- المصدر نفسه ، ج٣،ق٢،ص٥٠٢.

٢١- الهمذاني ، جامع التواريخ ،ج٢،ص٣٢٠،ص٣٢١.

٢٢- المصدر نفسه ،ص٥٠٢.

٢٣- ابن شداد ،الأعلاق الخطيرة ،ج٣،ق٢، ص٥٠٩.

٢٤- الهمذاني ، جامع التواريخ ، ص٣٢٢،ص٣٢٣، الذهبي ، العبر في خبر من غبر، تحقيق ،د . صلاح الدين المنجد وفؤاد سعيد ، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٤٨، ج٥ ، ص٢٥٠،فوزي، د . فاروق عمر ، النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية المتأخرة ،دار التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ، ١٩٨٩، ص٢٦٠.

٢٥- الاعلاق الخطيرة ، ج٣، ق٢، ص٥٠٧.

٢٦- جامع التواريخ ، ص٣٢٢، ص٣٢٣، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج٣، ص٢٠٣، الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص٣٨٧.

٢٧- الأعلاق الخطيرة ، ج٣ ، ق٢، ص٥٠٥، ص٥٠٦، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب ، ج٣، ص٢٩٥.

٢٨- سير أعلام النبلاء، ج٢٣، ص٢٠٢.

٢٩- ابن كثير ، أبي الفداء الحافظ (ت٧٧٤هـ) البداية والنهاية ، دار الفكر ، بيروت ، لا.ت، مج٧،ج١٣،ص٢١٥.

٣٠- أبو شامة ، الذيل على الروضتين ،ص٢٠٥، أبن الفوطي ، كمال الدين أبو الفضائل عبد الرزاق البغدادي ، (ت٧٢٣هـ) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، مكتبة التراث ، بغداد ، ١٣٥١هـ، ص٣٤٠، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ،ج٣، ص٢٠٣، ص٢٠٤.

٣١- الذيل على الروضتين ، ج٣، ق٢، ص٢٠٥.

٣٢- ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ، ج٣، ق٢، ص٥٠٩.

٣٣- ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ، ص٢٧٩،ص٢٨٠.

المصادر والمراجع

- الإدريسي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله(ت ٥٦٠هـ)
١- نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت٦٨٤هـ/١٢٣٤م)
٢- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق ، يحيى عماره ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق، ١٩٧٨.
- ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
٣- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ،دار الكتب العلمية ،بيروت ، لا.ت.
- ابن العبري ،غريغوريوس الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م)
٤- تأريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ،بيروت ،١٩٦٧.
- ابن الفوطي ،كمال الدين أبو الفضائل عبد الرزاق البغدادي (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م)
٥- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، مطبعة الفرات ، بغداد ، ١٣٥١هـ.
- ابن كثير ،إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
٦- البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ،بيروت ، لا.ت.
- أبو شامة ،شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي (ت٦٦٥هـ/١٢٢٦م)
٧- الذيل على الروضتين ، عني بنشره وراجع أصلة ،السيد عزت العطار الحسيني ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٤٧.

- أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر (ت٧٣٢هـ/١٣٣١م)
٨- المختصر في أخبار البشر،ط١، المطبعة الحسينية المصرية ، القاهرة ، ١٣٢٥هـ.
- الحنبلي ، احمد بن إبراهيم (ت٨٧٦هـ/١٤٧١م)
٩- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق ،ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧٨.
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)
١٠- سير أعلام النبلاء ،ط١، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،لا.ت.
١١- العبر في خبر من غبر ، تحقيق ، د. صلاح الدين المنجد وفؤاد سعيد ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٤٨.
- سبط بن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م)
١٢- مرآة الزمان في تأريخ الأعيان ،ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ، الهند ،١٩٥٢م.
- الهمذاني ، رشيد الدين فضل الله (ت٧١٨هـ/١٣١٨م)
١٣- جامع التواريخ ، نقلة إلى العربية ، محمد صادق نشأت ، قدمه ، يحيى الخشاب ، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي وشركاءه ،لا.ت.
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)
١٤- معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٦م.

- اليونيني ، موسى بن محمد بن احمد قطب الدين البعلبكي (ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م)
١٥- ذيل مرآة الزمان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد، الدكن ، الهند ،١٩٥٤م.

المراجع الحديثة

- التكريتي ، محمود ياسين
١٦- الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة ، دار الرشيد للنشر ،بغداد ، ١٩٨١.
- الجنابي ، عجمي محمود خطاب
١٧- المقاومة العربية للغزو المغولي حتى عين جالوت ، رسالة دكتوراه ، كلية الآداب ، بغداد ،١٩٩٠.
- حمدي ،حافظ احمد
١٨- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ،مطبعة الاعتماد ،القاهرة ، ١٩٥٠.
- الصياد ، فؤاد عبد المعطي
١٩- المغول في التاريخ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠.
- عاشور ، د. سعيد عبد الفتاح
٢٠- الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تأريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى ، ط٤، مكتبة لأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٦.
- عاشور ، فايد احمد

٢١- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، دار المعارف ، القاهرة ،١٩٧٥.

- فوزي ، د. فاروق عمر

٢٢- النهوض العربي في العراق والأقاليم المجاورة في العصور العباسية المتأخرة ، دار التعليم العالي والبحث العلمي ، جامعة بغداد ،١٩٨٩.